"الموج المكفوف والسقف المحفوظ"- ملخص محاضرة في اليوم العلمي 23
(الدكتور علي المر- نائب رئيس الجمعية الأردنية لإعجاز القرآن والسنة)

قبل سنين شد اهتمامي، في أحد كتب التفسير القديمة، عبارة "موج مكفوف" في سياق تأويل قول الله تعالى "وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ" (الأنبياء 32). لقد أثار الوصف شجوني وفضولي، بحكم تخصصي، فما موج؟ وما مكفوف؟ في كتاب يعود لأكثر من ألف ومئة سنة؟ وما الآية العظيمة، أو الآيات، التي يعرض الناس عنها، وأراد عز وجل أن يلمح لها، في كتاب "لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ" (فصلت 42)؟ وما علاقة رجل، عاش قبل 11 قرن من الزمن، بالموج، وتخصصي، ولم يشتغل في علوم الفضاء والفيزياء، ولكن في تفسير القرآن وعلوم الدين: ويا حسرتا لطالما استهان المسلمون، حتى من العلماء، بكتب التفسير القديمة وأصحابها؟

هل كان الرجل يقصد، بالإلهام، أو قل تخرصًا إن شئت، ما نسميه اليوم "الإشعاع الكوني"، القادم لنا من أعماق الفضاء، والذي لو قدر لجزء يسير منه النفاذ إلى الأرض لاحترقت في ساعات قليلة، وليس لتعذرت الحياة عليها الحياة، ولكن الله سلَّم، وكفه عنا بالتعبير الذي استخدمه أبو جعفر الطبري في تفسيره العظيم "جامع البيان عن تأويل أي القرآن"؟ وهل خطر بباله، يومها، أن الأرض ما هي إلا مغناطيس ضخم، له قطبان، شمالي وجنوبي، يوجهان أمواج الإشعاع الكوني المدمر نحو القطبين، بعيدًا عن المناطق المأهولة في الأرض؟ ولقد وجدتني مدفوعًا برغبة جامحة، بحكم تخصصي- كما أسلفت، إلى التنقيب في أمهات كتب التفسير، القديمة والحديثة، لعلي أجد جوابًا على ما جال بنفسي من أسئلة وخواطر. ولقد وجدت ضالتي، حديث شريف ورد في "تفسير القرآن العظيم" لحبر الأمة العظيم، أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، رحمه الله، يقول: "قِالَ رَجُلٌ يَا رَسُولَ اللهِ: مَا هذِهِ السَّمَاءُ؟ قَالَ: "مَوْجٌ مَكْفُوفٌ عَنْكُم" وبحثت عن صحة الحديث فوجدت أن روي عن أبي هريرة وابن عباس وأن إسناده غريب (كما وصف). ومرة أخرى شدني، في هذا الوصف العجيب، كلمة (عَنْكُم) التي تفيد معنى الوقاية من أمر خطير، أو إبعاد شيء خطير عنا. فوجدت نفسي مدفوعًا، أكثر، إلى البحث عن روايات تؤكد الحديث، أو تفسره، ولقد وجدت عجبًا!

وجدت أن الحديث ورد بثلاثة عشر- رواية، وفيها إضافات تؤكد القصد الإعجازي؛ وأن جميع هذه الروايات صنفت في أحكام مختلفة، كلها دون الصحيحة. وأن ما فيها من معاني، رغم ذلك، ينطبق تمامًا على الإشعاع الكوني، الذي كنت قد انتهيت من البحث فيه ضمن أطروحة بعنوان "دراسة حالات التعرض الإشعاعي المزمن في الأردن وآثاره الصحية" نلت عليها درجة الدكتوراه عام 2002. أتبعتها تأليف كتاب حول الموضوع بعنوان " الإشعاع البيئي وآثاره الصحية- دراسة تطبيقية شاملة (الحالة الأردنية) عام 2012. ولقد سرى في نفسي- شعور عارم بالامتنان لذلك العالم الجليل، أبي جعفر الطبري، الذي عاش في منتصف المدى الزمني الذي يفصلنا عن عصر- ابن عباس الميمون والنبوة الغراء؛ ونقل إلينا الحديث. فتوقفت برهة لدراسة سيرته والتعرف عليه؛ فخصصت فقرة في مستهل محاضرتي للتعريف به؛ يحدوني أمل كبير أن أخط بذلك سنة حسنة، نحرص عليها ونتواصى بها، نحن معشر- العلماء والمهتمين، أن نعتاد في أبحاثنا ومحاضراتنا وكتبنا وكل أعمالنا العلمية على وضع نبذٍ عن حضارتنا المشرقة التي تتعرض للسرقة والتشويه، وتاريخنا الوضاء الذي يتعرض للطمس المتعمد؛ وبشروح عن علمائنا الأخيار الأبرار الذين حملوا مشعل القرآن، فأناروا به ظلمات الأرض؛ وجعلوا من أمة أمية، كانت تعيش على هامش التاريخ في ذيل الأمم، خير أمة أخرجت للناس (انظر نص المحاضرة كاملًا)!

تدور الفكرة الأساسية في محاضرتي، في اليوم 23 لجمعيتنا، حول ظاهرة طبيعية (خلقية) اكتشفها أحد العلماء المعاصرين، عام 1958 م، واسمه جيمس فان ألين، وهي وقْفُ الإشعاع الكوني، القادم من الشمس والنجوم، في غلافين في الجو يحيطان بالأرض، سميا "حزاما فان ألين" باسمه. وتوجيهه نحو القطبين، بعيدًا عن المناطق المأهولة على الأرض، بقوة المجال المغناطيسي- الأرضي. ولقد تكونت لدي، بعد بحث مستفيض، قناعة علمية راسخة أن هذه الظاهرة مشمولة في العبارة الكريمة "وَجَعَلْنَا

السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا" (الآية)؛ وأن الحديث الشريف وصفها وشرحها بمفردات وتعبيرات دقيقة ومعبرة "مَوْجٌ مَكْفُوفٌ عَنْكُم" تصلح اسمًا علميًا لهذه الظاهرة. ومما زادني، فخرًا وولهًا، ورغبة في البحث وزادني قناعة بصحة هذه النتيجة، عبارة أخرى وردت في بعض الروايات، الثلاث عشرة، تقول إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قالَ: هل تَدرونَ ما فوقَكم؟ قالوا: اللَّهُ ورسولُهُ أعلَم. قالَ فإنَّها الرَّقيعُ سقفٌ محفوظٌ وموجٌ مَكفوفٌ... الحديث" (رواه الترمذي وحكمه ضعيف).

ولقد اندفعت أحقق وأبحث عن معنى رقيع، في قواميس اللغة، فوجدت أنه من رقع الشيء إذا ألحمه وأصلحه، وهذا وصف معروف، فكلنا يرقع ثيابه. ولكن الأمر العجيب معنى ورد في حديث عن معاوية رضي الله عنه، يصف فيها طريقة أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجدتها، في معجم لسان العرب، يقول رضي الله عنه: "كانَ يَلْقَم بيدٍ ويَرْقَع بالأُخْرى" أَي يَبسُط إحدى يديه لينتثر عليها ما يسقطُ من لُقَمه؛ كلها من لسان العرب العظيم لله دره من كتاب عظيم هو الآخر. وفي هذه الأوصاف من المعاني الغزيرة ما يتوافق مع ظاهرة وتأثير المجال المغناطيسي ـ الأرضي، الذي يرقع الإشعاع الكوني الساقط من السماء عن الأرض كما يرقع الطاعم ما يسقط من لقمه؛ قبل أن يوجهه نحو القطبين!

ولقد حرصتك، كذلك، لمزيد من الفائدة، على تضمين محاضرتي مواد علمية تفيد كل إنسان في حياته، عن مصادر الإشعاع التي تؤثر على الإنسان والبيئة، على مدار الساعة والوقت، وخصائص الجرعات الإشعاعية وآثارها الصحية الضارة، وسبل الوقاية من الإشعاع؛ ونتيجة بحوث أجريناها في البيئة الأردنية؛ وختمتها بفقرة للتوصيات أو نتائج البحث. وأولها توصية، أو دعوة، لعلماء الحديث الشريف للنظر في اعتماد الحقائق العلمية القطعية، المثبتة بالبحث العلمي، في الكون والمادة والحياة، أداة للحكم في تصحيح الحديث الشريف، إلى جانب غيرها من القواعد المعروفة في علم الحديث.

وأخيرًا وليس آخرًا، وقبل أن أنهي، يجدر التذكير إلى أن القرآن العظيم ليس كتابًا في نوع معين من العلوم، كالفيزياء أو القانون أو الذرة أو الإشعاع أو الفلك؛ فنتوقع أن يجيب على كل صغيرة وكبيرة في علوم المادة والحياة. ولكنه كلام رب العالمين، الذي إن ذكر شيئًا وصفه بحقيقته. وجعله آية من آيات الكون (في كتابه المنظور)؛ وأنزل القرآن العظيم (كتابه المسطور) وجعل فيه أمثلة كل شيء، آيات بينات "وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً" (الكهف 54)، مفاتح أبواب العلم، التي تبدو لنا للوهلة الأولى مغلقة في وجوهنا، فما نلبث أن نطرقها حتى تفتح لنا، فندرك ما وراءها؛ وذلك لعمري هو معنى الإعجاز العلمي، الذي بدأت أسراره تتكشف من اللحظة الأولى لبدء تنزله، فبدد بها أجدادنا جاهلية القرون الأولى.

واليوم، في القرون المتأخرة، وقد عجمت ألسن أهل اللغة فلم يعودوا قادرين على فهم إعجازه البياني، وتطورت أدوات البحث العلمي، وغاص الإنسان، من كل لون وجنس، في كبد المادة المحيق حتى بلغ قلب الذرة؛ وأبحر في غيابة الفضاء السحيق، حتى لامس أطراف الكون؛ وفقد، في تلك الرحلة، وهو يسعى لبلوغ منتهى المادة، إنسانيته ونسي ـ غاية خلقه، وخيمت ظلمة جاهلية جديدة طاخية، انبلج فجر الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، وبقوة، كما انبلج في فجر الدعوة، ليرد الإنسان إلى فطرته وخالقه. فتنعم البشرية من جديد في نعيم رسالة السماء وتتفيأ ظلالها الوارفة. ولقد منَّ الله سبحانه وتعالى علي بالبحث في الإعجاز منذ ما يقرب من 50 عامًا وإنها لنعمة كبرى، تدعوني لأن أتحدث فيها وعنها، وأدعوه أن يديمها علي ويعينني على شكره عليها. إنه نعم المولى ونعم المجيب.

1 ذو القعدة 1445 الموافق في 9/ 5/ 2024